الفصل الثاني

أوربا . . والمسيحية

سجل التاريخ فى صورة واضحة ، مآسى محاكم التفتيش ، وما كانت تقوم به من إحراق بالنار ، ورمى فى الزيت المغلى ، وإخراج للأظافر ، وتقطيع لأجزاء الجسم قطعة قطعة : زيادة فى العذاب ومضاعفة للآلام .

وسجل الأثر الأخلاقى الذى غمر الإنسانية فى أوربا من جراء هذه المحاكم :

فقد عم الرياء والنفاق ، خوفاً على الأموال والأرواح ، وانتشر الكذب والمداهنة بصورة لا مثيل لها ، ووقر فى أذهان الناس أن العدالة خرافة من الخرافات ، وأسطورة من الأساطير : ذلك أن شعار محاكم التفتيش ، كان سماع الاتهام ، وعدم الإصغاء إلى الدفاع .

وكان المقرب إلى هذه المحاكم هو الذى يتهم الآخرين ، بل هو الذى يكثر من اتهام الآخرين .

كانت فترة هول يشيب لها الأطفال ، وكانت باسم الدين ، وعن رجال الدين .

وحدثنا التاريخ أن نفوذ محاكم التفتيش تخطى أوربا ، وعبر البحار وتغلغل مع الفاتحين الأسبان فى ربوع أمريكا ، لأول عهدها بالغزو والفتح : وكانت الفظائع التى ارتكبت هناك ، سواء من الفاتحين ، أو من رجال الدين ضد الهنود الحمر ، لا تعد ولا تحصى .

وإذا كان ضمير الكنيسة قدر له أن يهمس أحياناً نادرة ، بأن الأوربيين

مواطنون ومسيحيون ، فإنه لم يكن يهمس بالنسبة للهنود الحمر : لذلك كان التنكيل بهم أشد ، والعذاب الذى يصب عليهم أنكى وأفظع .

سجل التاريخ كل هذا فى كتب لا يحصيها العد . ولم يقتصر التصوير على الكتب ، وإنما تعداها إلى القصص الذى وجد ميداناً خصيباً فى المآسى العنيفة التى ارتكبت باسم الدين .

ومن القصص التى صورت ذلك خير تصوير : القصة الخالدة التى ترجمت إلى اللغة العربية باسم « فارس قصطلة » ، وكان الأولى أن تترجم باسم « فارس قشتالة » .

ومهما يكن من شىء ، فإن هذه القصة صورت المأساة تصويراً بارعاً ، سواء فى جانبها الأوربى ، أو فى جانبها الأمريكى ، وقد ظهرت هذه القصة فى السينما ، فوجهت الأذهان توجيهاً قوياً نحو الربط بين المسيحية والتنكيل بالإنسانية .

وسجل التاريخ أيضاً ذلك الصراع العنيف بين المسيحية ، ورجال العلم ورجال الفكر الحر ، وليست مأساة « جاليليو » بالحادث الوحيد . . فالكثير من رجال العلم والفكر أحرق أو شنق ، أو زج به فى أعماق السجون ، وكل ذلك باسم الدين . . ! !

وعن محاكم التفتيش يقول الشيخ محمد عبده :

أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعى تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً فى جنوب فرنسا وإيطاليا . .

أنشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا .

قامت المحكمة بأعمالها حق القيام ، فى مدة ١٨ سنة – من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٤٩٩ – حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا وهم أحياء ، فأحرقوا ، وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير ، فشهروا وشنقوا . وعلى سبعة وتسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بعقوبات مختلفة فنفذت ، ثم أحرقت كل توراة بالعبرية .

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » ؟ وسيلة واحدة هى أن يحبس المتهم وتجرى عليه أنواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ .

قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر فى فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر فى كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة ، لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شىء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره .

اشتدت محكمة التفتيش فى طلب أولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها : فى المدن . فى البيوت . فى السراديب . فى الأنفاق . فى المخازن . فى المطابخ . فى المغارات . فى الغابات ، فى الحقول . فوقت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين ، عملا بالقول الجليل : « ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً » .

كانوا يأخذون الرهبان فى صوامعهم ، والقسس فى كنائسهم ، والأشراف فى قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع فى مصانعهم ، والعامة فى بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة ،

وتصدر الأحكام عليهم يوم اتهامهم .

قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكى أمام القسيس فى الكنيسة (أى الاعتراف بالذنوب طلباً لغفرانها) .

تذهب البنت أوالزوجة أو الأخت لأجل الاعتراف بين يدى القسيس يوم الأحد ، فيكون مما تسأل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدو من لسانه فى بيته ، وما يظهره فى أعماله بين أهله . فإذا وجد القسيس متلقى الاعتراف شيئاً من الشبهة فى طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره إلى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه . فإذا سئل عن الشاهد الذى عول عليه فى اتهامه لا يجاب ، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد ، وهو من أهله حتى يعترف .

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب فى قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يلمع فى ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله أو التفت وراءه أن رسول الشؤم يتبعه . وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه ، ومن ورود الفكرة العلمية إليه ، وقال باغلباديس ماكان يقوله جميع الناس لذلك العهد : «يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحياً ويموت على فراشه» .

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٨٠٨ على ثلثمائة وأربعين ألف نسمة ، منهم نحو مائتى ألف أحرقوا بالنار أحياء .

وتنفّس الناس الصعداء فى عصر النهضة التى كانت ثمرة لجهاد أحمر : أريقت فيه الدماء وتيتمت فيه الأطفال ، وأزهقت فيه النفوس .

وكانت النهضة تحرراً من السيطرة الطاغية : كانت تحرراً من سيطرة الملوك

والأمراء ، وكانت تحرراً من سيطرة التقاليد والعادات . وكانت - أيضاً - تخلصاً من سيطرة رجال الكنيسة والكهنوت .

لقد فقدت الكنيسة سيطرتها الطاغية منذ بدء النهضة ، ولكنها كانت تعمل دائبة لاعادتها .

وفى القرن السابع عشر تحررت الأقلام الأوربية تحرراً كبيراً بالنسبة للنصرانية وأصولها ومن ذلك مثلاً ماكتبه «اسبينوزا» ، إنه يقول :

ولقد توهم أن كل ما يحويه الكتاب المقدس هو جميعه منزه عن الخطأ . ولكن لاشئ أدخل من ذلك فى باب البطلان . عند سبينوزا فلا التوراة المعزوة إلى موسى ، ولا السفر المعزو إلى يوشع . ولا سفر القضاة ، ولا سفر روت ، ولا صمويل ، ولا سفر الملوك ، كتبت بأيدى المؤلفين الذين نسبت إليهم ، ولا فى التاريخ الذى تعينه النقول الدينية لهذه الكتب .

إن سفر (التوراة) كان ، حسبما ورد فيه هو نفسه ، مسطراً بيد موسى ولكن بينما يتكلم عنه سفر التثنية بضمير المتكلم فإن سائر الأسفار تتكلم عنه بضمير الغائب وفى هذا تباين ظاهر .

وأيضاً يشاهد أن سفر التثنية يحوى قصة موسى ورثاءه ، وهذا التأكيد الموحى : «لم يأت نبى مثله من بعده» .

وفوق ذلك نرى التوراة قد عينت أماكن بأسماء لم توضع لها إلا بعد أزمان متطاولة .

وإن القصص لتمتد فى هذا السفر ، بدون انقطاع ، حتى إلى ما بعد وفاة من ادعى أنه مخرجه .

وإن هناك لأسباباً مشابهة تثير كذلك شكًّا حول صحة أغلب كتب العهد القديم . إنها جميعاً تشبه أن تكون قد أخرجت متأخراً جدًا عن الوقائع التى ترويها ، وبأسلوب مؤلف واحد . وإن سبينوزا ليوحى إلينا باسمه : إنه ، على ما يعتقد ، (هيراس) .

ولقد ادعى أن جميع نصوص العهد القديم كانت بينة لا لبس فيها ، وأنها فيما بينها على انسجام . وتلك دعوى باطلة :

إن كثيراً منها لعلى تناقض فيما بينها . وكثير منها تافه المعانى .

ومع كل ذلك ، فاللسان العبرى لسان فيه كثير من اللبس ، وحروفه يختلف بعضها عن بعض ، وحروف العطف والظروف لها معان متعددة . أما الأفعال المضارعة فليس لها الأزمان المستعملة فى اللغات الأخرى . كما أنها خالية من الحركات ، خالية من الترقيم . أما المعنى فغامض دائماً ، ودائماً عسير التحديد .

ثم كيف – ونحن نجهل كل شىء عن كتبة التوراة – يمكن أن نعرف بأى روح كانوا يكتبون ؟ إننا عندما نقرأ (أرسطو) أو (أوفيد) فإننا نجد أنفسنا ، فى الثو واللحظة واقفين على مقاصدهما . نحن نعرف أن أحدهما كان يلهو بقصص من تصوراته ، والآخر بأساطير طريفة لها أحياناً مرام سياسية .

لكن أية فكرة نأخذ عن الأقاصيص التى نجدها فى العهد القديم ؟ عن قصة شمشون (الذى كان وحيداً وبدون جيش ، يقتل ألوفاً من الرجال) ؟ وعن قصة إيليا (الذى رفع إلى السماء على عربة من نار) ؟ أيجب أن نرى فى ذلك قصصاً ذات دعاوى تاريخية ؟ أيجب أن نرى فيها شيئاً آخر ؟ أساطير ؟ كذباً

للعظة ؟ ذلك مرده إلى معرفة الروح التى كانت مسيطرة على الكتّاب الذين ألفوا تلك الصحائف ، وتلك الروح من ذا الذى يعرفها ؟ [1] .

ويقول :

أما عن الطقوس العبرية ، فيجب ألا نعزو إليها قيمة خاصة . إن الشعب العبرانى ليس البتة (شعب الله المختار) . إنه ليس له مزية ، فى ذكاء ، ولا فى أخلاق . وإنه ليمكن أن يمارس المرء شعائرهم . دون أن يصير ، بذلك ، أشرف أو أفضل . وإنه ليمكن أن يكون المرء شريفاً طيباً دون أن يمارسها . إن تلك القواعد لتلك الطقوس لم يكن لها من غاية إلا أن تأخذ العبرانيين بالنظام الذى كانوا بحاجة إليه . . .

أما عن خطيئة آدم وتحمل أبناء آدم وزرها وأن كل ما يصيب الإنسان من آلام وفواجع إنما كان بسببها فقد كتبوا يقولون :

إن الإنسان قد برئ طيباً وفى اتزان تام فى عالم خال من الشرور ولكن الإنسان قارف الخطيئة . ولأنه قارف الخطيئة صار معاقباً ، ولأنه صار معاقباً ملئ العالم بالشرور .

لكن هل يمكن للعقل أن يقتنع بمثل تلك التأكيدات ؟

ما الرأى ، أولاً ، فى ألم الحيوان ؟ أنا مثلاً أضرب كلباً ، إنه يعوى من الألم . وإن كان يتألم ، فهل يجب أن يقال إنه انحدر من صلب أبيه الأول الذى أكل هو أيضاً من طعام محرم ؟ أم هل يجب أن يعد معاقباً من أجل غلطة آدم

---

(١) انظر كتاب : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة .

مع أنه لم يكن للكلاب فى هذا شأن يذكر ، وهذا ظلم بالغ حد القسوة ؟ أيمكن أن يسلم بأنه لا يتألم وأنه ، على منهج ديكارت ، وخلافاً للمعقول ، إنما يصدر عن مجرد عمل ميكانيكى . . ؟

ومن ناحية أخرى ماذا يقال عن آلام الإنسانية . . ؟

يقول بسكال : «لا شىء يزحم العقل الإنسانى بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية . وإنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة» . وكم يبدو غريباً أن يحكم على طفل بالألم من أجل خطيئة لم يكن هو نفسه قد ارتكبها ، ولم يكن قد غمس فيها أصبعاً بأية وسيلة ، بل لم يعرف عنها شيئاً إلا من التاريخ ، وبعد زمن من حياته .

وإنه لحق أن تعليل الشر بالخطيئة الأصلية ، لمن يتمسك بمنطقه ، إنما هو من الفروض المتعذرة .

وإنها لنهاية لا يمكن تحاشيها ، كلما فكرنا أكثر فى طبيعة هذه الخطيئة نفسها :

لكى يكون المرء مسئولاً ، ومعاقباً بالعدل ، يجب أن يكون المرء حراً فى مقاصده ، وبدون ذلك فليس ثم مكان للأهلية بالفضيلة ، ولا للسقوط بالإثم[1] .

وأتى القرن الثامن عشر ، والكنيسة تحلم بإعادة سابق سيطرتها على العالم الأوربى ، وتسعى جاهدة لاسترداد ما فقدته من سلطان على الضمائر والنفوس

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة .

والقلوب . وشعر كبار الكتاب بالخطر يتهدد الإنسانية فى صورة محاكم التفتيش ، فحمل «فولتير» و«روسو» وغيرهما حملة شعواء على رجال الدين المسيحى ، وتخطت حملتهم رجال الدين إلى المسيحية نفسها ، فأخذوا يقوّضون قيمها ، ويهدمون بمعاول من فولاذ . بيد أن أبحاثهم – وإن كانت تستهوى الأديب – لبلاغة الأسلوب ، وجمال التعبير ، وقوة المنطق ، فإنها لم تكن تتسم بالصورة العلمية الحقيقية ، وكانت تبدو ، عند المتمعن ، كأنها ثأر ثائر لا يبالى ، فى سبيل الغاية ، بالوسائل التى يسلكها ، ومن أجل ذلك كانت أبحاثهم متفاوتة القيمة : فيها الضعف ، وفيها القوة وفيها الحقيقة ، وفيها الوهم ، ولكنها – على كل حال – نالت من قدسية المسيحية ، وعبدت الطريق للنقد العلمى .

بدأ إذن النقد العلمى فى القرن التاسع عشر ، وبدأ متسلسلاً ، ثم أخذ يتغلغل شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان أواخر القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن العشرين ، شمل النقد المسيحية من جهة عقيدتها ، ومن جهة كتبها المقدسة .

كتب «رينان» عن المسيح عليه السلام ، كتاباً يثبت فيه «أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ، ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى ، وبالروح الكريمة» .

وإذا قوضت فكرة المسيح الإله ، أو المسيح ابن الإله ، فقد انهارت المسيحية الحالية من أساسها[1] .

(١) آراء يقصد المستشرقون منها المسيحية فى أوربا حيث البيئة التى نشئوا فيها .

ولكن «رينان» لم يكن متطرفاً فى حكمه ، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجوداً تاريخياً حقيقياً .

وما كان من المعقول قط : أن يؤمن رينان ، ذو العقلية الصارمة ، بألوهية المسيح ، أو بالتثليث ، أو بالخلاص ، بالطرق التى توجبها الكنيسة ، والحمد لله أن آمن بوجود المسيح كحقيقة تاريخية .

ولكن آخرين أخذوا ينقبون فى بطون الكتب ، ويتتبعون الروايات ، ويغربلون الوثائق ، فانتهوا إلى عدم الاطمئنان لوجود المسيح وجوداً تاريخياً ، ورأوا أن المسيح : أسطورة .

ولقد اشترك الأستاذ «بابيه» أستاذ علم الاجتماع فى جامعة «السربون» مع زميلين له فى تأليف كتاب ينحو هذا النحو الأخير .

وأثبت الأستاذ «بابيه» أن السبب الرئيسى ، بل السبب الوحيد الذى جعل «الإمبراطور قسطنطين» يتخذ المسيحية ديناً رسمياً ، إنما هو ما رآه فيها من التعصب الذى لا يوجد فى غيرها من الأديان التى كانت منتشرة إذ ذاك فى روما . ورأى أن هذا التعصب نفسه هو الذى سيربط الإمبراطورية برباط من حديد ، فيكون ذلك مقاوماً لعوامل التفكك التى تسرى فى شرايين الإمبراطورية .

لقد ابتأس الإمبراطور حينما رأى التفكك والانحلال يسرى فى إمبراطوريته المترامية الأطراف وأخذ يفكر فيما يمكن أن يربط هذه الأشلاء التى توشك أن تتداعى .

ونظر فى الأديان الموجودة فوجدها ثلاثة أديان متعادلة ، كل منها يصارع

الآخر ليصرعه ، ولم يكن نظره فى هذه الأديان للهداية والرشد . أو النجاة فى العالم الأخروى ، وإنما كان ينظر فى الأديان ليرى أيها أشد تعصباً وأشد تهيؤاً واستعداداً للتنكيل بالمخالف ، فرأى أن المسيحية يتوافر فى رجالها ذلك ، فاختارها ديناً رسمياً للدولة من أجل هذا السبب فحسب .

أما أحد زملاء « بابيه » فقد كتب فى الكتاب نفسه ، قائلاً إن المسيح ، عليه السلام : أسطورة لا حقيقة لها .

وكتب الزميل الثالث موضوعاً لا يقل خطورة عن ذلك . وقد وجد من علماء تاريخ الأديان فى النصف الأول من القرن العشرين ، علمان من أعلام الباحثين ، أحدهما : الأستاذ « لويس » وقد تخصص فى كتب العهد القديم ، وأثبت بالطريق العلمى الصحيح ، أن هذه الكتب نالها التحريف .

أما الآخر ، وهو الأستاذ « جنى بير » فقد كان أستاذاً لتاريخ الأديان بجامعة « السربون » إلى عهد قريب ، ولأبحاثه شهرة عالمية .

وقد كتب كتاباً ضخماً عن العصر الذى نشأ فيه المسيح ، عليه السلام ، وكتب كتاباً آخر فيما يقرب من خمسمائة صفحة عن المسيح نفسه ، وكتب كتاباً ثالثاً عن تطور العقائد ، ورابعاً فى جزئين عن المسيحية القديمة ، ومسيحية العصور الوسطى ، والمسيحية الحديثة .

وقد أثبت فى كل هذه الكتب ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هى مسيحية المسيح ، بل لا تمت إلى مسيحية المسيح بصلة ، اللهم إلا الصلة الاسمية .

وقد تتبع المسيحية الحالية : كيف نشأت منفصلة عن المسيح ، ثم كيف

تطورت إلى أن أصبحت فى الوضع الحالى ، وبين فى وضوح لا لبس فيه ، أثر القديس « بولس » على المسيحية . والقديس « بولس » هذا : أمره غريب ، وحالته النفسية لم تتضح كل الوضوح إلى الآن .

لقد كان يهودياً متعصباً لليهودية يصارع خصومها فى عنف ، ويستعمل كل نشاطه وحيويته فى تثبيت دعائمها . ثم كان وثنيًّا شديد التعصب للوثنية .

وذات ليلة – حين كان مسافراً – زعم أنه رأى المسيح ، والنور والإشراق ، وأنه اهتدى إلى المسيحية ، وركز حيويته الجارفة أيضاً فى تدعيمها . ولكن كيف ؟ . . أن المسيح لم يدع أنه آت بدين جديد مستقل عن دين موسى ، وإنما أتى – حسب ما يقول – لإصلاح ما أفسده اليهود فى دين موسى . وتلك فكرة لا تجعل لديانة المسيح أصالتها ، وبالتالى لا تروق للقديس بولس . . . فأخذ يخترع ، وينظم ، وينسق ، إلى أن أقام مسيحية تدين له أكثر مما تدين للمسيح [1] .

لقد أثبت الأستاذ جنى بير أن المسيحية الحالية إنما هى فى أغلبها الأعم : مدينة للقديس بولس ، وأثبت أن المسيح كان – على الخصوص – متجهاً إلى إذاعة ونشر بعض القواعد الأخلاقية التى كانت تحتاجها البيئة إذ ذاك .

لقد كانت بيئة متحجرة لا تنبض القلوب فيها بقطرات من الرحمة أو الإشفاق .

لقد كانت البيئة اليهودية على أسوأ ما يمكن أن تكون عليه اليهودية .

وأتى المسيح مبشراً بالرحمة ، والإشفاق ، والتعاون ، والمحبة .

---

(١) هذا رأى المستشرق .

أما التثليث ، وأما فكرة الألوهية التى تمشى على الأرض متمثلة فيه ، أو البنوة للإله ، أما هذه العقائد المعقدة التى لا يستسيغها عقل ، ولا يطمئن إليها فؤاد . فقد كانت حسبما يرى الأستاذ جنى بير ، بعيدة كل البعد عن رسالة المسيح .

وبالطبع حرمت الكنيسة كتبه ، وطردته من ملكوت السموات . . وكانت كتبه عن المسيحية تدرس بقسم تاريخ الأديان بالجامعة ، وقد حضرناها عليه شخصياً ، وامتحننا هو فيها .

كل هذه العوامل بعثت الشك فى نفوس هؤلاء الذين كانوا من سعة الأفق بحيث لم يقتصروا فى قراءتهم على الكتب التى لا تحرمها الكنيسة .

وإذا زلزل الشك عقيدة معينة ، فإن الشاك يتطلع إلى غيرها ، وقد اتجه بعض من عصف بهم الشك إلى الإسلام فأسلموا ، واعتصموا بدين الله خاتم الأديان .